

مجلَّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 3 (2008) : 9 – 26
www.univ-ghardaia.dz/index.php/dz/component/content/article?id=130

الشعر الشعبي الديني
في مناطق الصحراء الجزائرية
(شعراء منطقة « توات» عينة)

أ/ عاشور سرقمة قسم اللة العربية وآدابها المركز الجامعي ـ غرداية

قال أحد المستشرقين الألمان، وهو (هانس ستيم) (**Hans Stumme**):

«إنَّ العرب المغاربة لم يهتمُّوا إلاَّ قليلاً بتُراثهم الشَّعبي في شعره ونثره، رغم أنَّهم يملكون إنتاجاً أدبياً رائعاً. لذلك فإنَّ الكثير من هذا الإبداع ـ خصوصاً منه الشِّعر ـ سينتهي به الأمر ـ إن عاجلاً أو آجلاً ـ إلى الضَّياع في أعماق مُحيط النِّسيان...».

وحتى لا يكون هذا المصير هو مآل الشعر الشعبي خاصة في مناطق الصحراء الجزائرية فإننا نسعى إلى جمع وتدوين، وأحياناً دراسة هذا التراث الشعبي، ونشجع طلبتنا على ذلك، حتى لا يدخل تحت طي النسيان. وسنشير في هذه الكلمة إلى جزء من تلك الرحلة الطويلة التي قطعناها. واخترنا الحديث هنا حول الشعر الشعبي الديني لانتشاره وذيوعه في أوساط الشعب وترديده في عديد المناسبات.......

الشعر الشعبي الديني هو ذلك الشعر الصادر عن نفس مفعمة بالعاطفة الدينية، ويتعرض الشعراء فيه إلى موضوعات ذات ارتباط مباشر ببعض المسائل والقضايا الدينية، التي يرى الشاعر أنه من الضرورة بمكان الوقوف عند بعض من تفاصيلها من ناحية؛ ومن أجل إفادة أكبر شريحة من الشعب بما يريد أن يوصله لهم من معلومات أو مشاعر بلغتهم البسيطة؛ ويَحْمِلُهُمْ عندها على مقاسمته مشاعره وأحاسيسه .

وقد عَرفت مناطق الجنوب الجزائري على كَرِّ العصور عدداً كبيراً من الشعراء الذين كتبوا شعراً دينياً ملتزماً نذكر منهم الشاعر محمد بلخير[1] بمنطقة البيض والشاعر أحمد كرومي بمنطقة بشار[2]، والشاعر سيدي أحمد بلحرمة[3] بمدينة بريان منطقة غرداية، والشاعر الشرع عبد القادر[4]، ومن الشعراء المعاصرين بوادي ميزاب الشاعر صالح ترشين[5] وغيرهم بمناطق الجنوب الجزائري كثير وكثير، يحتاج كل واحد منهم إلى وقفة خاصة، وهو ما نرجو أن نقوم به في أبحاث ومقالات أخرى إن شاء الله . وسنكتفي بالوقوف عند شعراء منطقة من مناطق الصحراء الجزائري وهي منطقة توات، لنعرف ببعض من شعرائها الشعبيين الذي كتبوا في موضوع الدين، ونشير في عجالة إلى بعض الموضوعات الدينية التي تطرقوا إليها في أشعارهم.

أعتقد أنَّ من نافلة القول أن نشير إلى أن منطقة توات . الواقعة بالجنوب الغربي من الجزائر والمسمى جزء منها اليوم بـ "ولاية أدرار" . تزخر بعديد العلماء البعض منهم قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وقد كان أغلبهم شعراء استطاعوا أن يبثوا في أشعارهم زبدة أفكارهم، وخلجات صدورهم؛ إلا أنه وللأسف فأغلب هذه الكتابات ضاعت أو هي معرضة للضياع بسبب وجودها محفوظة في صدور بعض الرجال الذين يَضِنُّ البعض منهم بها، وبذلك لما يموتون يأخذون معهم تلك المكتبات، وبعض تلك النصوص موجودة في مخطوطات تتعرض الكثير منها إلى الضياع؛ وقد سعينا إلى إخراج هذا التراث حيثما وجدنا إلى ذلك سبيلا، وبداية احتكاكنا بهذا التراث كانت في مرحلة الليسانس، بجمع أشعار بعض الشعراء الشعبيين وازدادت هذه العلاقة توطدا حين سجلنا بحثنا في الماجستير بعنوان «*الشعر الشعبي الديني في منطقة توات، سيدي محمد بن المبروك أنموذجا، جمع ودراسة*» وتزداد تلك العلاقة كل يوم توطدا، حيث سجلنا بحثنا لنيل درجة الدكتوراه بعنوان «*بنية الخطاب الصوفي عند شعراء توات تحقيق ودراسة*»

وأود قبل أن أغوص في إشكالية بحثنا، والمتعلقة بكيفية إخراج هذا التراث ليرى النور والمشكلات التي واجهتنا وتواجهنا، أودُّ أن أطرح قضية أرى أنه من الضرورة بمكان الوقوف عندها هنا، وإن كنا قد طرحناها في مقال سابق غير منشور بعنوان " توات حلقة مفقودة في تاريخ الأدب الجزائري " وذلك أجل التحسيس بها

ولم لا تخطيها؛ وهي ببساطة مسألة عدم الاهتمام بما كتب من أعمال أدبية في هذه المنطقة من طرف الباحثين وخاصة الذين عنون البعض منهم دراساتهم بعناوين كبيرة جدا فيها صفة الوطنية مثل " الشعر الجزائري " أو " الأدب الجزائري "، واكتشاف ذلك ليس بالسر ولا العسير الوصول إليه حتى من طرف القارئ المبتدئ للدراسات التي استهدفت الأدب الجزائري . ونرى أنه من جانب الإنصاف العلمي أن يشار إلى عدم تمكن الباحث من الوصول إلى بعض النصوص في مناطق أعوزته أسباب للوصول إليها.

إلا أن حدة لهجتنا يمكن أن تخف شيئا ما، إذا وضعنا أيدينا على الأسباب التي أدت إلى قلة اهتمام الباحثين والدارسين بأدب هذه المنطقة ولعل أول سبب عدم سعي أبناء المنطقة إلى تقديم كتابات ودراسات حول شعراء وأدباء المنطقة، ونشير إلى أن هذا المشكل بدأ يجد مخرجاً خاصة مع الجيل الجديد، ولو أنه جاء متأخرا بعض الشيء، واقتصر اهتمامهم على مناحي معينة فقط وببعض الأدباء لا كلهم، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله؛ وثاني سبب هو ما ذكرناه سابقا من عدم سعي بعض الباحثين والدارسين على المستوى الوطني . خاصة الذين لهم فضل السبق في التأريخ والتأصيل للأدب الجزائري . إلى محاولة الوصول إلى مواطن البعض من تلك الكتابات. والحق نقول أنه لا يمكننا تعميم ذلك عليهم جميعا، فقد وجدنا أن بعضهم ذكر البعض منها؛ إلا أننا نقول أمامهم وبكل تواضع أن ذلك غير كاف أمام هذا التراث الضخم الذي يشكل جزءا من ذاكرة هذه المنطقة وتخليدا لعلمائها.

تزخر منطقة توات بالكثير من الشعراء الشعبيين وقد واجهتنا في بداية بحثنا قلة النسخ للنصوص، ونحن نعلم أن عملية تحقيق أي نص يشترط فيها توافر ثلاث نسخ على الأقل حتى يكون التحقيق أكثر وفاء في إخراج وتحقيق أي نص، لذلك استعنا ببعض الحفاظ الذين يحفظون هذه الأشعار وبعض الأفراد الذين يملكون كنانيش، وهم الحافظ دفه سالم وهو من منطقة بودة ويحفظ الكثير من أشعار عائلة بوسبع حجات وأخذنا بعض القصائد مما هو عند الشيخ داوعلي محمد وهو من منطقة زاوية كنتة، وكذلك اعتمدنا على نسخة ثالثة عبارة عن كناش بحوزة عائلة جعفري ببودة، وحاولنا مقارنة النصوص بعضها ببعض، وقد تلقينا مشكلات مع بعض الحفاظ الذين اختلط عليهم الأمر حين جئناهم نسأل عن تراجم بعض الشعراء فظنوا

أننا من عائلاتهم و جئنا نطلب نصيبنا من الميراث؛ وهذا في الحقيقة من المضحكات المبكيات وشر البلية ما يضحك، وقد وجدنا بعض القصائد غير معروفة المبدعين مثل قصيدة:

فَبَسْمَ اللهْ ابْديتْ فِي انْشَادِي يَا فَاهَمْ ذَا الْحْدِيثْ وَاصْغَ ذَا الصُّورَه

فَبَسْمَ اللهْ ابْدِيتْ فَايْدَه تَفْجِي[6] كُلْ هْمُومْ .

وكذلك قصيدة ذكرت فيها وفاة الرسول (ﷺ) وهي «ما اعظم داك النهار»[7] وطالعها :

مَـا اعْظَـمْ دَاكْ النْهَـارْ مَـا اكْبَرْهَـا صَـيْحَه
يَوْمْ اخْرَجْ الرْسُولْ مَنْ بَيْنْ اصْحابُو

بَجْفَـانْ امْقَلْبَـه بَالدَّمْعَـه طَابُـو[8]

يَا مَنْ ايْدَوَّرْ لَحْيَا مَنْ بَعْدُو

ثم يذكر قصة ابنته التي هي منذ ستة شهور تبكي وحيدة على فراقه وقصة خروجها يوم العيد لصلاة الوقفة ومنع الصغار لها من قراءة القرآن .

ثم بعد ذاك يرجو الشاعر الشفاعة من الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، ويورد بعدها قصة السيد بلال رضي الله عليه وسلم، لما صعد فوق سقف البيت وسمع بكاء فاطمة وعز عليه ذلك :

تَسْكَنْ دَارْ النْعِيمْ فِيهَا تَتْكَافَى[9]
تَلْـبَسْ غِيـرْ الحْرِيـرْ وَامْسُـوكْ ايْهَبُّـوْ[10]

وَحْرَامْ عْلِيكْ عَوْضْهَا وينْ تْصِيبُو[11]

يَعْدَلْ بَالْحَقْ وينْ عَوْضْ المُصْطَفَى

عَمْرُو مَا مَالْ مَا اتْبَعْ طَفْحْ[12] اشْبَابُو

نَرْجُو شْفَاعْتَهْ غْدَا يَوْمَ الوَقْفَه[13]

يَعْمَلْنَا[14] فِى حْمَاهْ لَيْلاَ نَتْرَجَّاوَهْ[15]

طْلَعْ بِلاَلْ للسْطَحْ فُوقَ الغُرْفَه

سْمَعْ تَحْنَانْ[16] فَاطْمَه حَرْقَتْ كَبْدُو
أَذَّنْ وَنْــزَلْ جَــا عْلَــى وَجْــهُورر نَكْفَــى[17]
مَــا قَــدّْ ايْقِــيمْ الصّْــلاَةْ بِهَــمْ رَهْبُــوا[18]

جَاهَا قَنْدِيلْ ضَاوِي مَا يَطْفَى

وهكذا بعد أن سمع السيد بلال بكاءها لم يستطع أن يقيم الصلاة وبعد أن جاء فاطمة ذلك القنديل طلبت منه أن تخرج معه لأنها ملت من البقاء وخرجت معه خارج القرية .

ونجد كذلك قصيدة «توبوا يا ناس الحال»[19] ومطلعها:

تُوبُـوا يَـا نَـاسْ الْحَـالْ[20] مَـا بْقَـاتْ[21] اوْلِـعْ[22] مَـنْ بَعْـدْ الشّْـرِيفْ العَـلاَوِي
غَــابْ الفُضِــيلْ اللهْ ايْرَحْمُــو مُــولاَيَ اليَزِيــدْ

مَـاتْ عْلَـى مَـنْ جَرْحُـو أُو سَـارْ بَـالْفْرَاقْ وَاتْمَـامْ الاَعْشَـقْ مَـا صَـابْ[23] ايْـدَاوِي
آشْ[24] ايْــدَاوِي هَــمّْ الْفْــرَاقْ مَجْــرُوحْ ابْغِيــرْ احْدِيــدْ

والشاعر في هذين البيتين يدعو "ناس الحال" ونحسب أنهم الصوفية؛ يدعوهم إلى التوبة من متع الحياة لأنه لم يبق أي ولع بعد موت الشريف العلوي – نسبة إلى سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ولم يبق أي شوق وحب ومرح وزهو لأن علة كل ذلك قد ذهبت بوفاة اليزيد .

ويضيف الشاعر أن بعد هذه الفاجعة لم يعد يطيب له مجلس من مجالس الأحباب، وهو يتحسر على تلك النزه التي كان يقوم بها اليزيد في" بوجلود" بالمغرب الأقصى وكذلك في فاس المدينة المغربية العريقة التي اشتهرت بالعلم والعلماء وطيب جوها. فأصبحت هذه الأماكن كلها وكأنه لم تطأها قط رجلا السيد اليزيد وهو الذي كان مولعا بصيد الطيور. واليوم لم تبق إلا الرسوم والذكريات:

جِيـتْ امْفَقَّـدْ[25] الاَرْسَـامْ شُـورْ[26] بُوطَاحْهَـا[27]وَالقَـبْ انْصِـيبْ[28] مَرْتَـاحْ امْسَـلْوِي[29]
انْصِــيبْ الاَطْــيَارْ ايْنَشْــدُوا عْلَــى الاَغْصَــانْ انْشِــيدْ

قَلْتْ أَيَا غَبْنِي[30] هَاهْ[31] وِينْ الاَخْنَاثْ[32] أُو وِينْ[33] غَابْ الاَهْلاَلْ الضَّاوِي
وِينُو سُلْطَانْ الغَرْبْ وِينْ غَابْ التَّايَكْ[34] الاَمْجِيدْ

ونجد في الشعر الديني القصصي قصيدة «لله يا جمع المومنين»[35] طالعها:

لله يَا جَمْعْ المُومْنِينْ صَلُّوا عْلَى بُوفَاطْمَه
يَا لَجْوَادْ[36] اللِّي حَاضْرِينْ صَلُّوا عْلَى جَدْ الحُسِينْ

والتي يذكر فيها صاحبها قصة رجل كان يعبد ربه في خلوته إلى أن جاءه الشيطان يوسوس إليه فطرده، لكن لم يذهب بل أراد أن يبتلي هذا العابد فألقى له في حجره عظما وقال له : أطلب من ربك أن يحيي لك هذا العظم ثم استقام ذلك العظم لينبت ويصبح شجرة وهكذا تتواصل القصة ويقول الشاعر بأنه وجد هذه القصة في كتاب كبير وقد أحصاها لدى ابن عاشر ووجدها عند ابن عباس

هَذِي قَصَّه بَحْدِيثْهَا فِي كْتَابْ كْبِيرْ لْقِيتْهَا[37]
وَابْنُ عَاشِرْ حْصِيتْهَا وَابْنُ عَبَّاسْ اعْلَى ايْمِينْ
قَصَّةْ اعْبَيْدْ فِي خلوتا[38] يَعْبَدْ مُولاَهْ بْنِيتُو
جَاهْ الشِّيطَانْ ايْفَلْتُو[39] صَابُو[40] مَتْوحَّدْ بَالْيَقِينْ
جَابْ[41] لِيهْ اعْضَمْ مَنَ الْقْبَرْ لاَحُو فِي حَجْرُو بَالْقْدَرْ[42]

والإشكالية الثانية في تحقيق الشعر الشعبي عند شعراء توات وهي أننا وجدنا بعض الشعراء الذين لم نعثر على تراجم لهم، وما كان ذلك إلا بسبب الإهمال فلو كان الاهتمام مبكرا بأشعارهم، لما ضاعت سيرهم وقد اقتربنا من بعض العائلات التي تحمل نفس اللقب الذي يحمله بعض الشعراء، فقالوا لنا أنه قيل لنا أنه كان في عائلتنا عالم كان يقول شعرا ولكن لا نعرف عنه أي شيء فقلنا لهم حددوا لنا على الأقل العصر الذي عاش فيه فما كان لهم من جواب، فمن العيب أن نضع أمام شاعر كبير وعالم عبارة «شاعر مجهول» . ونحمد الله على وجود «التوقيع» في الشعر الشعبي وهو أن يذكر الشاعر اسمه أو كنيته، صراحة أو تلميحاً في آخر القصيدة.

ونحمد الله كذلك على وجود «التأريخ»، وهو أن يذكر الشاعر تاريخا يتعلق بكتابة

القصيدة سواء بداية كتابتها أو الانتهاء من ذلك أو غيرها

ووجدنا من بين أولئك الشعراء : الشاعر «محمد ولد احمد» في قصيدته التي عنونها بـ «نبدا بسم الله من قلبي ولساني» والتي يقول في ختامها :

يَا رَبِّ تَغْفَرْ لْمُحَمَّدْ وَلْدْ احْمَدْ يَجْعَـلْ سَـعِيدْ وَلْـدْ اليَمَانِـي

يَا رَبِّ تَغْفَرْ لِيَّ أُو لْوَالْدِيَّ أَمْعَ المُسْلِمِينْ أُو نَاظَمْ وزَانِي

يَا رَبِّ تَغْفَرْ لْمُحَمَّدْ وَلْدْ احْمَدْ أَبْلاَدُو تْمَنْطِيطْ فِي قْصَرْ المَيْمُونِي[43]

وهو في آخر هذه القصيدة يشير إلى بلده وهو «قصر الميمون» أحد قصور مقاطعة «بودة».

يعد أولياء الله الصالحون أو «الوليا»[44] بالنسبة لسكان منطقة توات أولئك الرجال العظماء الذين توصلوا من خلال أعمالهم وتقواهم إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى وهم الذين خدموا رسالة الله ونشروها في مختلف البقاع شادين الرحال إليها لايبتغون شيئا من وراء ذلك إلا مرضاة الله سبحانه متعالى وكابدوا من أجل أدائها عديد المشاق، لصعوبة التنقل في المنطقة وحرارة الجو ووعورة المسالك، لذلك فإن صورة هؤلاء الرجال لاتمَّحي من ذاكرة سكان المنطقة من خلال مل تروى من قصص حولهم مما يغذي الاعتقاد الكبير بهؤلاء الأولياء.

وتمتلئ المنطقة بعدد كبير من الأولياء فقرب كل قصر من قصور المنطقة تقريبا يوجد ولي وهذا على امتداد أقاليم المنطقة الأربعة (قورارة، وتوات، وتنزروفت، وتيديكلت) ومن هؤلاء، سيدي الحاج بلقاسم[45] في تيميمون، وسيدي حيده[46] ببوده، ومولاي علي بلحاج[47] بزاوية كننه، والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي[48] بزاويته بوسط توات، والطالب مسعود[49] بزاوية حينون بآولف، ومولاي عبد الله الرقاني[50] بزاويته برقان، وغيرهم كثير.

هذا الاعتقاد بهؤلاء العلماء دفع بالشعراء لأن ينظموا قصائد يذكرون فيها مناقبهم ويصفونهم، ويصفون الظروف التي كانوا يؤدون فيها رسالتهم.

وهناك بعض القصائد التي نجد فيها ذكرا لأولياء الله الصالحين الذين سبقوا

عصر الشعراء ورويت لهم قصصاً عن ورعهم وتقواهم، وحِلِّهم وترحالهم لطلب العلم والإصابة فيه بسهم عميق، أو بعض الصالحين الذين عاصروا الشعراء ورأوهم رأي العين، أو وصلت إلى آذانهم أخبارهم .

ومن بين تلك القصائد التي تعرف بفضل هؤلاء الرجال الصالحين قصيدة " بسم الله ابديت نشعر "[51] للشاعر" امبارك جعوان "[52] الذي لم نجد له ترجمة ؛والتي طالعها:

بَسْــمَ الله ابْــدِيتْ نَشْعَــرْ وَانْجِــيبْ عْلَـى الصَّــالْحِينْ
وِايْدَاوِي عَقْلِي وِايْنْجْبَرْ وِيْكُونُوا لِيَّا اعْوِينْ

ويبتديء الشاعر قصيدته ببسم الله ثم يتلوها بـ «انجيب» أي أقول شعرا على الصالحين يضيف أن هذا : لكي يتداوى عقله و«ينجبر» وتقال للشيء المكسور الذي يراد إصلاح كسره وقيل في هذا المعنى:

إنَّ القُلـوبَ إذَا تَنَـافَرَ وُدُّهَـا مِثـل الزُّجاجـة كسـرُها لايُجْبَـرُ

وأخيراً وليس آخراً نكتفي بذكر شاعر آخر لم نجد له ترجمة وهو الشاعر عبد العزيز بن امحمد صاحب قصيدة : «بسم المولى ابديت نستفتح في ذا القول» والتي طالعها:

بَسْــمَ المُــولَى ابْــدِيتْ نَسْــتَفْتَحْ فِــي ذَا القُــولْ بَــاشْ[53] يَسْــقَامْ[54] لْسَــانِي
وَنْمَجَّــدْ بِيــهْ اوْلاَدْ لاَلَّــه شَــايَبْ[55] وِلِيْشِــيرْ[56]

وهناك بعض الشعراء الذين وجدنا تراجم لهم ولو أنها مختصرة أو تحتاج إلى تحقيق، من بينهم الشاعر سيدي محمد الإيداوعلي الأعباني وكذلك الشاعر سيدي محمد بن المبروك البودوي، هذا الأخير الذي كتب قصيدة يعتذر فيها من شيخه مولاي عبد المالك الرقاني وعنوانها «لله اقبل من جاك»[57] مطلعها:

لله اقْبَلْ مَنْ جَاكْ يَا مُولاَيْ عَبْدْ المَالِكْ
لله اقْبَــلْ مَــنْ جَــاكْ يَــا وَلِــيَّ اللهْ مَالَــكْ

انْتَ مُولْ التَّصْريفْ وَالِي وَاصَلْ وَاشْريفْ

َفْرَحْ بَنْزُولْ الضَّيْفْ تْكَرَّمْ مَنْ طِيبْ اظْلاَلَكْ[58]

والشاعر كما هو واضح يستعطف شيخه ويرجو منه أن يقبله وأن يغفر له هاته الزلة التي وقع فيها لذلك شرع في ذكر كل مشايخه الذين عنهم وعائلة شيخه حيث يقول له:

حُرْمَةْ[59] مُولاَيْ الرَّقَّانِي بُوكْ وَالوَزَّانِ

مَتَّصَلْ مَنْ عَدْنَانْ شْرِيفْ مَنْ خَافَكْ سَالَكْ[60]

ثم ذكر بعد ذلك العديد من المشائخ والفقهاء والأولياء والصالحين نذكر منهم:

بوزيان، والشيخ امبارك، والحاج والغازي، وابن عربي، والغزالي، وبن يوسف، والزروق، والحضرمي، وبوداود، وابن عطاء الله، وبن امشيش، وأبو مدين شعيب، وسيدي علي بن حرزهم، وأبو يعزى الوالي، وأبو معروف الكرخي الذي يصفه الشاعر بـ (المُريد)[61] والقطب أبو الحسان ويقول الشاعر مخاطبا الشيخ مولاي عبد الله الرقاني:

....

وَالقُطْبْ[62] أَبُو الحَسَانْ عَالِي وَصَّلُوا ياوْصالَكْ

....

هُوَ بَحْرْ الدِّيوَانْ[63] مَنُّو مَا كَانْ الحَالَكْ

وهذه كلها تسمى "اِلسِّلْسِلَةُ" أو " السَّلْسْلَه" كما يطيب للعامة محليا تسميتها، ونحسب أن اشتقاق الاسم إنما هو مشتق من ذكر تسلسل المشائخ، فيها تلميذا عن شيخه إلى أن تصل الرسالة إلى آخر الصحابة ثم بعدها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كما هو الحال بالنسبة لقصيدة "لله اقبل من جاك" التي بين أيدينا، وذلك حين يوضح الشاعر:

شِيخُو رَسُولْ اللهْ جَدُّو بَاسْمُو سَمَّاهْ[64]

عَنْ جِبْرِيلْ اللِّي جَاهْ[65] مَنْ عَنْدْ المُولَى مَالَكْ

وهناك بعض القصائد التي ذُكر فيها العلماء والأولياء الصالحين والتوسل

بجاههم عند الله سبحانه وتعالى فنجد من بينها قصيدة «كل يوم عليكم براح»[66] للشاعرة المتصوفة «نانا عائشة»[67] البودوية والتي طالعها:

كُلْ يَوْمْ عْلِيكُمْ بَرَّاحْ[68] يَا الصَّلاَّحْ يَا رْجَالْ اللهْ غِيثُونِي[69]
قُلْتْ بَاسْمْ اللهْ بَاشْ ابْدِيتْ فِي كْلاَمِي نَظْمِي بِيتُو

وهي عبارة عن «تُوسْيلَه» كما يطلق سكان المنطقة على القصائد التي تضمنت غرض التوسل، وهي عبارة عن دعاء يتوسل به العبد ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى، وقد ذكرت فيها عدة صفات للأولياء الصالحين مثل قولها:

يَا اهْلْ الهَمَّه وَالتَّصْرِيفْ بِينْكُمْ بَاغِي نَسْتَسْرَا[70]
يَا شْيُوخِي عَالَمْ وَاشْرِيفْ قَاعْ فِيكَمْ دَرْتْ النَّعْرَا[71]

حيث شبهتهم بأهل الهمة والتصريف في الأمور ولم تستثن عالما منهم أو شريفا، ثم تضيف في مقطع آخر:

يَا اهْلْ الهَيْبَه وَالوَقَارْ يَا السَّادَاتْ الأَوْلِيَا
يَا دْرَارِي رُشَّادْ احْرَارْ يَا اجْدَادِي طُولُوا[72] فِيَّا

ثم ذكرت أنهم إن أغاثوها ليس ذلك بالعار، وذكرت أنهم أهل أمها وأبيها، وهم ليسوا بشحيحين لأنهم ينتمون إلى أرض الكرم " فاس "؛ وبذكرها لهذه الأخيرة نعود لنؤكد مدى العلاقة الوطيدة التي كانت تربطها بمنطقة توات باعتبارهما منطقتي إشعاع علمي وثقافي[73] .

يَا السَّالِكِينْ بَالْكَمَالْ بْغِيتْ[74] فِيكَمْ قَاعْ[75] المَعْرُوفْ
يَا المَجْدُوبِينْ[76] اهْلْ الحَالْ يَا سْيَادِي قَلْبِي مَلْهُوفْ[77]

حيث شبهتهم بالسالكين أي أنهم سلكوا سبل النجاة بكمالهم البشري الذي وصلوا إليه بعبادتهم إلى الله سبحانه وتعالى وتقربهم إليه .

وشبهتهم كذلك بالمجذوبين وأهل الحال والمجذوبين من «الجذبة» وهي

حالة من السكر يصل إليها المتصوف في لحظة تأدية الشطحات الصوفية، وأهل الحال أي المتصوفة وطلبت منهم أن يأخذوا بيديها شبابا وشيوخا أحرارا وشرفاء وحرطانيين.

ثم تصل إلى قولها:

بَاغِيْ فِيكَمْ الجَاهْ الكَبِيرْ   عَنْدْ رَبِّي رَاجَلْ وَامْرَا
يَا اهْلْ البَرَكَه وَالخِيرْ   خَرّْجُونِي مَنْ ذَا الغَمْرَا
بَالِي فِي بَابْ التَّسْخِيرْ   أُو بِيْنْكُمْ يَا نَاسْ الحَضْرَه
يَا الصَّادِقِينْ بَالأَفْرَاحْ   بَيْنْكُمْ جُمْلاَ دِيرُونِي[78]

أي أنا أتوسل بجاهكم جميعا عند الله رجلا وامرأة، ثم ذكرت بأنهم أهل البركة والخير وذكرت أنهم ناس الحضرة..

وهم الذين وصفتهم بالصادقين بالأفراح وطلبت منهم أن يضعوها بينهم حتى ينالها ولو شيئا مما أصابهم من الخير.

نَانَا عَيْشَه بَالتَّشْرَاحْ يَا الصَّلاَّحْ   ظَاهْرَه مَاهِي جَحْدَانِي

ومن قصائد التوسل إلى الله سبحانه وتعالى قصيدة «بسم الله بها نمجد»[79]

للشاعر «سعيد بوعزه» [80] وبدايتها:

بَسْمَ اللهْ بِهَا نْمَجَّدْ   وَالصَّلاَةْ عْلَى النَّبِي
لاَ إِلـهَ إِلاَّ اللهْ   مَحْلاَهَا فِي قَلْبِي

«لا إله إلا الله» التي يقول فيما بعد «يعملني» أي أتمنى من المولى عز وجل أن يجعلني بها أتباهى يوم «يفنى قلبي» أ ي يوم يموت ويطلب من الله أن يرزقه اليقين، والشاعر لا يدري ما يفعل لأن شيطانه «مْعَلَّمْ» وهو لقب يطلق على من فقه أمراً معيناً من أمور العلم والمعرفة، وهذا الشيطان «مَا يَتْلَفَّتْ» أي لا يلتفت ولا يفكر في شيء آخر إلا في إيقاعي في بحر الذنوب والكذب، لذلك فإنه يقول عندما يموت سوف يبقى مسجونا في قبره ولا يجد إلا ما عمله من الأعمال، ويقول تعالى في ذلك: ﴿وإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار آية 9

.[11،

ويدعو الشاعر طالبا منه أن يحضر له يقينه وفكره، وأن يطلق لسانه عند السؤال وأن لا يتشوش فكره وأن ينطق بأدب، وتحضر له الشهادة عند وفاته حتى يقولها وبذلك يسهل عليه الحساب:

مَا يَطْلَقْنِي قْرِيتُو نَسْمَعْ فِي الخِطَابِي
كَانْ احْضَرْ لِيَّ ايْقِينِي وَاعْطَانِي رَبِّي لْسَانِي
مَانَتْشَوَّشْ مَا يَدِّيـنِي نَنْطَقْ بَالآدَابِ
أُونَشْهَدْ يَا رَبِّي الغَانِي سَهَّلْ لِي حِسَابِي

ثم يدعو الله سبحانه وتعالى أن لا تعمى له البصيرة، وأن ينجو كما نجا خيار الناس ويطلب منه أن يسهل له في «لَمْرِيرَه» وهي لحظات الضيق والعسر، وأن يتكفل بذنوبه، يقول كل ذلك لعل أن يناله الثواب والأجر العظيم؛ ثم يذكر بعض أسماء الله الحسنى وهي: الحليم والعليم والحي والقيوم والغفور والرحيم والغني ..

يقول بجاه أي بمكانة سيدنا موسى الكليم، الذي كلمه الله سبحانه متعالى، ويتمنى من الله بعد ذلك أن يستر عيوبه بجاه النبي الكريم، والشاعر يعترف أنه لا راحم إلا الله.

و«الزَّاوِيةُ» لكونها رافدا من بين الروافد الدينية في المنطقة، فهي تزخر بعديد المشائخ والعلماء، الذين سخروا حياتهم لطاعة الله سبحانه وتعالى وخدمة دينه والابتعاد عن ملذات الحياة الزائلة ومن بين أولئك العلماء «سيد عبد الحق البكري (بكلي عبد الرحمن بن عمر)»(81) المشهور بـ «عبد الحق القاضي» الذي له قصيدة في الزهد هي «ما ايدوم غير الدايم»(82) والتي طالعها:

مَا ايْدُومْ غِيرْ الدَّايَمْ كُلّْ مَا عْلِيهَا فَانِي
سُبْحَانْ مَنْ لاَ يَزُولْ مَا ايْمَلّْ مَا يَنْسَانِي

وفي هذا البيت يصف الشاعر مآل الدنيا، وبأنه لايدوم فيها إلا الله سبحانه وتعالى، وهو «الدايم» ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَان وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلاَلِ وَالاكْرَام﴾ [الرحمن آية 26،27]. وهو موقن بأن الله لن ينساه أبدا، ويذكر أن الله موجود وباق

ليس له والد ولا هو والد، ثم ينادي الله تعالى بقوله: «يا خالق الاكوان» ثم يتبعها بـ «يا المعبود اللي فضلو ممدود» يا من خيرك محمود لا نستطيع أن نصفه.

ثم يضيف أن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل إلى الناس أجمعين. ويدعوه أن يهدينا إلى طريقهم . ثم ينطلق في الدعوة إلى الزهد في ملذات الحياة والتنبه بعين الحكيم العاقل الذي يدرك أنه في هذه الدنيا مسافر أو عابر سبيل كما يقول صلى الله عليه وسلم؛ يتنبه إلى هذه الدنيا الزائلة والتي حتما من جرى فيها بلا فائدة سيشقى ويتعب.

ونختم حديثنا عن الشعر الشعبي الديني في منطقة توات بقصيدة في المديح النبوي، الذي يسمى بتوات "لَمْدَحْ"، وهي تسمية في الحقيقة تطلق على كل الشعر الشعبي الديني بالمنطقة لأن أغلبه في هذا الغرض (المديح النبوي)، فهذا من باب تسمية الكل باسم الجزء.

والقصيدة التي سنشير إليها هنا هي قصيدة للشاعر سيدي محمد بن المبروك البودوي يقول في مطلعها:

جَاتْنَا مَنْ عندك الاَفْراحْ يا المَصْبَاحْ — صَاحَبْ التَّاجْ المَدانِي
يَا اللّي ما وَلْدَتْ حَوَّا — وَلاَّ ليه شْبيهْ مِنَ الرِّجَالْ

ويقول الشاعر في هذين البيتين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد لقَّبَه الشاعر بـ «صَاحَبْ التَّاجْ» وهو تاج النبوة . جاءنا بالأفراح لمَّا أتى بهذا الدين، الذي هو رحمة للعالمين، والرسول صلى الله عليه وسلم لم تلد مثله امرأة وليس له من الرجال شبيه.

وهكذا يواصل الشاعر وصفه للصفات الخَلقية والخُلُقية للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

وعموماً فإن الشعر الشعبي الديني في منطقة توات خاصة، ومناطق الجنوب الجزائري عامة يُعبِّر في مجمله عن عاطفة دينية نراها صادقة مُعبِّرة عن إحساس عميق للدين الإسلامي؛ وعكست لنا أيضاً تشبُّع سكان تلك المناطق بتعاليمه، التي كانت تلقَّنُ في الزوايا والكتاتيب والمساجد، ودعت إليها بعض الطرق الصوفية المعروفة مثل الطريقة

القادرية والتيجانية، والوزانية، والبكرية، والشاذلية، والفاضلية ،والطيبية وغيرها .

الهوامش

1- ينسب إلى الزريقات، وقد ذكر له سونك قصيدة: " يا السايل لا تلغالي "
انظر: سونك، الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقية والمغرب، موفم للنشر، 1994، ص: 167 وما بعدها .
2 – ولد عام 1918 بالعبادلة . ومن شعره الديني قصيدة له يقول في طالعها:
" سُبْحَانْ رَبِّ تَعَالَى   شَامَخْ القْدَرْ وِينْ نْظَرْ... "
انظر: بركة بوشيبة، شعراء ذوي منيع الشعبيون، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2002، ص: 271 .
3- ولد عام 1835 بمدينة بريان ،ومن شعره الديني قصيدة طالعها :
" اللهْ مْصَلِّي عْلَى النَّبِي وَسَلَّمْ   مُحَمَّدْ فِي المْضِيقْ لاَ تَنْسَانِي ..."
وشعره رائق غاية في الجمال والإبداع، وفي مكتبتنا بعضٌ من قصائده .
4 – ولد سنة 1865 هـ، وتوفي سنة 1949، ودفن بشعبة النص ضواحي متليلي، وله شعر رقيق، ومن شعره الديني قصيدة طالعها :
" تْفَقَّدْ يَا بَنْ الشّْرَعْ مَا دَرْتْ قْبِيلْ   قَرَّكْ ابْلِيسْ تَحْسَبْ الحَالْ ايْطُولْ... "
مقتطف من قصيدته ضمن مجموعة من قصائده بين أيدينا.
5- ولد ببني يزقن في 12 سبتمبر 1952، له ديوان شعري مطبوع ومترجم من الميزابية (الأمازيغية) إلى العربية والفرنسية بعنوان : " أُولْ اِنُو " أي: " قلبي " . طبع المطبعة العربية، غرداية، 1994 .
ومن قصائده الدينية قصيدة، "حافظة القرآن الكريم" التي يقول في مطلعها :
"انَّاسْ اِتّنِّي   اِشَمْرَنْ القُرْآنْ
تِلِيدْ تَنَمِّيرْتْ   اَطَّرَا نُمَقْرانْ
اَوَالْ نُمَقْرَانْ   سَّالاَيْ اِتْرَانْ ..." الديوان، ص: 30 .
وتُرجمت إلى العربية :
" قُلْ للتي وَعَتِ القرآن:
جديرة أنت بمباركة، وحُبِّ الجليل.
كلام الله يَرْفَعُ إلى النجوم .... " الديوان : 128 .

6- تفرج كل الهموم .

7- ينظر مدونة السيد الحدادي امحمد ص 43 .

8- طابو: من شدة البكاء

9- تتكافا: تكافؤ

10- ايهبو: تفوح بعطرها

11- تصيبو: تجده

12- طفح: نزوات

13- يوم الوقفه: يوم القيامة معناها مستعار من وقوف الناس للحساب

14- يعملنا: يجعلنا

15- نترجاو: ننتظر شفاعته يوم القيامة

16- تحنان: بكاء رقيق

17- نكفى: مسك وجهه بيديه ووجهه إلى الأرض وهو يبكي

18- رهبو: خافوا

19- ينظر مدونة السيد داوعلي محمد ص11

20- ناس الحال: الصوف

21- ما ابقات: لم يبق

22- أولع: ولع وشوق وحب

23- ما صاب: لم يجد

24- آش: أي شي ء

25- امفقد: أتفقد

26- شور: ناحية

27- بوطاحها: بطاحها

28- انصيب: أجد

29- امسلوي: متسلسا

30- غبني: حزني

31- هاه: تستعمل للتحسر

32- الاخناث: الأنفة

33- وين: أين

34- التايك: طيب القلب

35- ينظر مدونة السيد الحدادي أحمد

36- الاجواد: الكرام

37- لقيتها وجدتها
38- خلوه: المكان الذي يتعبد فيه الزهاد بعيدا عن الأعين
39- ايفلتو: يغلطه
40- صابو: وجده
41- جاب: أحضر
37- لاحو: وضع/ بالقدر: بأدب واحترام .
43- لم نستطع معرفة المكان الذي يوجد فيه هذا القصر بالذات، فلما سألنا عن مكان قريب من تمنطيط قال لنا السيد بكراوي بأنه كان هناك قصر قريب من تمنطيط يسمى الميموني إلا أنه اندثر ، وهناك قصر آخر يسمى الميمون إلا أنه قريب من تيمي وهو قد ذكر تمنطيط والتي يعتبر هذا القصر بعيدا عنها ، إلا أننا رجحنا أن يكون قصر الميموني هذا هو القصر الذي يعرف حاليا بـ " قصر أولاد الحاج المامون " وهو قصر قريب من تمنطيط حوالي 5 كلم .
44- مصطلح يطلق على أولياء الله الصالحين بالمنطقة ويقال " أولياء " وهي " جمع ولي وهو من الولاء وهو العون والنصر، سموا بذلك لأنهم منصورون بالله معززون به لايطمعون في شيء سوى القرب منه " انظر: محمد عبد العزيز سيدي اعمر، قطف الزهرات من أخبار علماء توات، ص 149.
45- ضريحه بزاويته بتيميمون إقليم قوراره
46- ضريحه بزاويته 25 كلم غرب مقر ولاية أدرار
47- ضريحه بتوات الوسطى (زاوية كنته) 80 كلم جنوب ولاية أدرار
48- ضريحه بزاويته بتوات الوسطى 90 كلم جنوب ولاية أدرار قدم من تلمسان إلى توات لنشر الإسلام.
49- ضريحه بزاوية حينون بإقليم تيديكلت 250 كلم جنوب مقر ولاية أدرار
50- ضريحه موجود جنوب مدينة رقان بزاويته المعروفة .
51- ينظر مدونة السيد الحدادي أحمد ص 44 .
52- لم نجد عنه أية معلومات فقط أن الشيخ الحاج امحمد الكنتي أخبرنا أن هذا الشاعر ينسب لقصر " تيلولين " ببلدية أنجزمير ولاية أدرار.
53- باش: أصلها بأي شيء ؟ وتستعمل بمعنى لكي .
54- يسقام: يستقيم اللسان ويحسن قوله .
55- شايب: من الشيب وهو تعبير عن كبر السن .
56- إيشير: عكس الشايب وهو الصغير في السن .
57- تنظر مدونة السيد الحدادي أمحمد ووجدنا نسخة مخطوطة قديمة بخط محمد عبد

الكريم بن محمد بن محمد عبد الكريم في مكتبة ابن الوليد الوليد، وقد روى لنا الشيخ داوعلى محمد أن سبب كتابة هذه القصيدة هو أن الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني مرَّ على مجلس من التلاميذ الذين كان يدرسهم الشاعر قائل هذه القصيدة وقد كان بدوره تلميذا عند مولاي عبد المالك الرقاني وعند مروره من قرب تلك الحلقة أو ذلك المجلس لم يقم الشاعر ليحيي شيخه فذهب الشيخ وأخذ لهم كل ما كانوا يملكون . وفي بعض الروايات أنه أخذ منه علمه ولما أدرك الشاعر خطأه تبع شيخه إلى زاوية الرقاني مشيا وهو ينشد هذه القصيدة، التي يعتذر فيها عن هذا الخطأ الذي ارتكبه، ومطلعها كاف للدلالة على ذلك ولما وصل إليه قبل منه عذره وعاد إلى القصر الذي كان يدرس فيه وهو قصر الجديد **30** كلم جنوب مقر ولاية أدرار.

58– وجدنا في مخطوطة مكتبة ابن الوليد بيتين قبل هذا البيت هما :

سَعْدُو سَعْدُو مَنْ رَاكْ   أُو شَافْ طَيْرْ انْجَالَكْ

رَاهْ المَوْلَى علاَّكْ   مَا يَنْكَرْ حَدّْ اكْمَالَكْ

59– حرمة: يجاهه

60– سالك: ناجي

61– المريد: المبتدإ في الطريق

62 – القطب: مرتبة المربي في الطريق

63– الديوان: الحضرة

64– وجدنا هذا السطر في مكتبة ابن الوليد الوليد:" شيخو رسول الله جزاك يا الشي اسقاه" وهو غير واضح المعنى مقارنة بالقول لذلك نعتبر هذا النص متحولا والذي قبله ثابتا.

65– جاه: جاءه

66– ينظر مدونة السيد جعفري محمد أحد أحفاد عائلة الشاعرة، المنصور، بوده ص **12** .

67– ابنة سيدي محمد بن المبروك الإبن صاحب كتاب، زاهدة ومتصوفة لها شعر رقيق وغزير، يذكر أنها عاشت زاهدة ولم تتزوج قط . " نقل الرواة عمن أبدع قصور توات " قالت **110** قصيدة في مختلف الموضوعات حسب ما روي لنا من طرف حفدتها .

68– براح: منادي

69– غيتوني: أغيثوني

70– نستسرا: أستتر

71– النعرا: أي توجهت إليكم كلية لتأخذوا بيدي

72– طولوا في: أحنوا علي

73- كانت هناك علاقة كبيرة بين فاس وتوات، ونمثل على ذلك مثلا بالقوافل التجارية التي كانت تمر "على طريق فاس ومكناس، إلى تمبوكتو ويمر بقصبة المخزن وأم دريبية ويتبع حوض وادي غير إلى إيجلي ثم حوض وادي أم الساورة إلى توات، وأكابلي وبئر تير يشو مين ووالن وعين رنان ومبروك وتمبوكتو " انظر: يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الندوات والمحاضرات الدولية ، ص **111**.

74- بغيت: أردت

75- قاع: جميعا

76- المجدوبين: لقب للمتصوفة الذين يفنون حياتهم في عبادة الله سبحانه وتعالى .

77- ملهوف: تطلق على الشره في الأكل لكنها الآن هنا تستعمل للدلالة على الحاجة الكبيرة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى .

78- اجعلوني .

79- رواية عن السيد بوعزه عبد الله **35** سنة يشتغل سائق حافلة لنقل المسافرين حفيد الشاعر (تيطاف).

80- المعروف محليا بـ (أَبَّا سْعِيدْ) وهو سعيد ابن الصديق بوعزه ابن الحاج بلقاسم ولد عام **1904**م عاش في تيطاف جنوب مقر ولاية أدرار بحوالي **70** كلم وتوفي بها في **20** جانفي **1982** ودفن بمقبرتها.

81- سيد عبد الحق بن سيد عبد الكريم بن الشيخ سيدي البكري، استخلفه والده أثناء مرضه الذي مات فيه بأمر عمه الشيخ سيدي محمد بن البكري عام **1174**هـ، وبعد موت والده ظهر عدله وانتشر فضله، وكان كثير الاجتهاد ولطريق الحق سهل الانقياد، وكان يحسن خمسة ألسنة كالعربية والزناتية والكردية والترقية والبربرية، أخذ العلم عن والده وعن سيدي عبد الرحمان بن عمر المصطفى الرقادي، وسيد عبد الكريم بن سيدي محمد، وعلي والطالب العابد ابن احمد، وابنه سيد عبد الكريم بن الحق، وغيرهم، وتوفي وهو محرم في صلاة الصبح يوم الإثنين غرة ذي القعدة عام **1220**هـ .

ويقول عنه "صاحب الدرة الفاخرة في ذكر المشائخ التواتية ": " كان رضي الله عنه إماما صالحا ماهرا في علوم شتى وكان من غرائب الدهر فلم يكن في عصره من يستخلص الفروع الفقهية مثله، كان كبير القدر وافر الحرمة تولى القضاء الأكبر نفعه في الفتوى وحسن السيرة في القضاء، وظهر من حسن سيرته وجميل طريقته ما يكل عن وصفه اللسان، وكان الاعتماد عليه في زمانه في القضاء، وتوفي عام عشرة ومائتين وألف "، ورقة **36** .

82- ينظر مدونة السيد حدادي أحمد، ورقة: **64**.